البيروني عالما اجتماعيا وانثروبولوجيا

أ.د. عبدالرزاق جدوع محمد

جامعة ديالى / كلية التربية الاساسية / دكتوراه علم الاجتماع

مقدمة

البيروني(٩٧٣-١٠٥٠م ه) أبو الريحان محمد بن أحمد المتخصص في الرياضيات والطب والاجتماع والفلسفة والأنثروبولوجيا والجغرافية . قيُمه العلماء والمستشرقون الاجانب نظراً لعلميته وسعة فكره وصوابيه منهجه وكثرة الأبحاث والمؤلفات التي كتبها ونشرها. فقد قال عنه العالم (سميث) في كتابه (تأريخ الرياضيات) أن البيروني كان ألمع علماء زمانه في الرياضيات وأن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم ومآثرهم في العلوم والآداب والفنون [١] .أما المستشرق(جوزيف شخت) فقد كان يرى بأن البيروني عبقرياً مبدعاً ذا بصيرة شاملة وعميقة [٢].

أما(أدوارد سخاو) فقد بلغ إعجابه به حداً جعله يقول فيه " أن الشيخ ابو الريحان البيروني اعظم مفكر ظهر على وجه البسيطة . في حين قال عنه المستشرق الروسي "بار تولد " أن آراءه لا زالت جديرة بعناية قراء اليوم ، وأن مؤلفاته تحتل مكانة متميزة من حيث وفرة موادها وتنوع موضوعاتها ودقة حقائقها والتزامها الشديد بأصول البحث العلمي والنظري والتجريبي [٣] .

تتلمذ على يد كبار أساتذة عصره في الرياضيات وعلم الفلك والطب والجغرافية والاجتماع وقواعد اللغة . وأتصل بالعديد من مفكري وفلاسفة عصره وحاورهم وحضر محاضراتهم ودروسهم ،منهم أبن سينا والفارابي والكندي والمسعودي. كما تأثر وهو(من مفكري بلاد الشرق) بالثقافة اليونانية والحكمة الهندية التي درس الكثير عنها في مكتبة أحد أمراء الدولة السامانية . وكان متمكناً من أصول اللغة العربية عالماً

بأسرارها وقواعدها وآدابها . وكان يجيد الى جوارها اللغة الفارسية واللغة السنسكريتية (لغة شعب الهند) واليونانية والعبرية والسريانية[٤] .

لم تتوقف عالميته عند هذا الحد ، بل امتدت لتشمل العديد من الدول التي تدعي شرف أنتسابها اليه أو تقول أنه احد مواطنيها الأبرار . فالروس يعدونه أحد مواطنيهم ، إذ اقيم له تمثالاً في متحف جامعة موسكو تقديراً له ، كما سميت كلية الدراسات الشرقية بجامعة طشقند بكلية البيروني . وهناك عدد من الباحثين الروس قد كرسوا جهودهم العلمية على تحقيق تراثه المعرفي [٥] . والترك هم الأخرون ينازعون الروس في ادعاءهم شرف انتسابهم الى البيروني ، إذ يعدونه تركماني الأصل . كما أن الفرس ينازعون هؤلاء وهؤلاء في شرف انتماء البيروني إليهم . وهو في حقيقته من أصل فارسي، لكنه حسم هذه القضية بنفسه عندما اختار اللغة العربية لسانا والإسلام دينا له . [٦] ،كيف لا وهو عربي اللسان، مسلم العقيدة ،عالمي الفكر و المكانة.

عرف عنه انه كان الى جانب من الدهاء والذكاء الخارق والقدرة على الابداع والابتكار في عدة علوم كالرياضيات والطب وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والتاريخ واللغات . وكان الى جانب علمه وسعة اطلاعه يتمتع بسمات الناقد الجريء الذي ينقد الامور ويبدي رايه فيها بحرية وشجاعة ممزوجتين بالإخلاص والتسامح [٧] . وكلها صفات جعلت منه عملة نادرة لا تنساق وراء الاطماع والشهوات والملذات ،بل تعمل لصالح العلم والادب والفن والفلسفة واللغة في سياق علمي وتربوي مستقل لا يصل الى مستواه الا اكابر العلماء والمفكرين من العرب والمسلمين ، بل اكثر من ذلك فقد سمي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي بعصر البيروني [٨] .

تعلق البيروني بأساتذته الكبار الذين تأثر بهم واخذ عنهم ، وعند انجازه للبحوث العلمية والاجتماعية الاصيلة كان يرد الفضل في ذلك الى الذين تعلم منهم وتأثر بهم [٩]، اما تراثهُ العلمي والانساني فيتجسد في الابحاث والمؤلفات والترجمات الكثيرة التي تركها والتي يقول عنها ياقوت الحموي انها تقع في فهرست يتكون من ستين ورقة . وقد عالجت مؤلفاته وابحاثه معظم موضوعات المعرفة العلمية والانسانية التي كانت سائدة في عصره، والتي على راسها الرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب وعلم

الاجتماع والهندسة والفلسفة وعلم الفلك . ولا بحاثه ومؤلفاته وترجماته قيمتها واصالتها واهميتها للعلوم التي انفرد بها والإضافات التي قدمها لتنمية هذه العلوم وتطويرها .

المبحث الأول :حياة البيروني ومنزلته العلمية والعصر الذي عاش فيه :

١-حياته

ولد ابو الريحان محمد بن احمد البيروني في ضاحية كاث عاصمة خوارزم في أوزبكستان في ٥ أيلول حوالي (٣٦٢هـ ٩٧٣م)[١٠] ، وهناك من يقول أنه ولد في مدينة كاث وهي مدينة في السند ،واقليم السند اسم مكان يطلق على الجزء الشمالي الغربي من الهند واكثره يقع في باكستان في الوقت الراهن [١١]. لكن هناك من يدعي ان ولادته في سنة ٩٧٢م [١٣]، ومنهم من يقول أنه ولد في ٤ أيلول عام ٩٧٣م . ومثلما أختلف في مولده كذلك أختلف في مكان ولادته ، فمنهم من يرى انه ولد في بلدة (بيرون) احدى ضواحي مدينة (كاث) عاصمة الدولة الخوارزمية ، إذ توجد في موضعها حالياً بلدة صغيرة تابعة لجمهورية اوزبكستان . ويرى آخرون ان مكان ولادته في مدينة (قاص) من خوارزم وهي حالياً تسمى (شاه عباس دلي) [١٤]

وقد توهم (ابن أبي اصيبعة) حين أشار إلى وقوع بيرون في السند [١٥] ، وتابعه في ذلك الاستاذ احمد أمين [١٦] ، والواقع لا دليل على وجود مدينة بهذا الاسم . ويرجح بعض الباحثين ولادته في (خيوه) أحدى ضواحي خوارزم، بمعنى انه كان من سكان (خيوه) وهي واحة نائية تقع في أسيا الوسطى ، وفي أيام البيروني كانت اللغة الفارسية لاتزال هي السائدة فيها، وقد تختلف عن مكانتها ابتداءً من القرن التاسع الهجري / الرابع عشر الميلادي إلى اللهجات التركية [١٧]. والبيروني تعني بالفارسية (البراني) أو الضاحية أي خارج المدينة ، ويرى البعض أنه كان

ينتمي إلى العرق الفارسي ، لكنه كان عربي الثقافة ، وهذا ما ذكره (ماسينيون) عن ولاءه للعربية (١٨). ويرى آخرون أنه كان تركياً ثم تعلم العربية والفارسية ، وعلى أية حال فأن لغته الوطنية كانت الخوارزمية (١٩).

ومدينة (كاث)التابعة لخوارزم، كانت آنذاك تشكل مركز اشعاع علمي وحضاري كبير ، فقد ورثت حضارة قديمة بعد الفتح الإسلامي وكانت عاصمتها (بخارى) ،يقول الثعالبي عنها (مثابة المجد وكعبة الملك) لكن في سنة ٣٨٢ سقطت العاصمة فهرب آخر ملوك السامانيين وأدى الوضع الجديد إلى نشوء دولتين متناحرتين كما هو الحال في الكثير من ربوع الدولة الاسلامية التي كانت تمزقها الفتن والصراعات الداخلية، اضطر البيروني إلى مغادرة البلاد والتوجه إلى(الري)، ومنها إلى(جرجان) بناءً على دعوة من السلطان قابوس أمضى فيها ست سنوات ثم عاد إلى (خوارزم) . وفي سنة ٤٠٨هـ سقطت خوارزم بيد السلطان (محمود الغزنوي) الذي عرف ببطشه وظلمه ، سجن البيروني مع استاذه الذي اتهم بعلاقته بالقرامطة ، وحكم عليهما بالموت ، لكن تدخل بعض الاصدقاء انقذه من الموت ، فاقتيد مع عدد كبير من العلماء والأدباء كأسرى إلى (غزنة) عاصمة(الدولة الغزنوية)، وفي غزنة تعرض للسجن أكثر من مرة وصدر حكم بإعدامه. اذن تنقل البيروني من كاث الى الري الى جرجان الى خوارزم ثم الى غزنة ثم بعد ذلك الاتهامات التي وُجهت اليه والحكم عليه بالإعدام (٢٠)، والملاحظ ان العلماء والفلاسفة غالبا ما كانوا عرضة للقتل او الاستبعاد بحجة المؤامرة او التجسس او الانضمام الى الخصوم والمعارضة لاسيما في اوقات المحن والاضطرابات والفتن .

يقال أن البيروني ولد في خوارزم التابعة حالياً لأوزبكستان والتي كانت تابعة لسلالة السامانيين في بلاد فارس . تعلم اليونانية والسنسكريتية خلال رحلاته ، والبيروني بلغة خوارزم تعني (الغريب)أو الآتي من خارج البلدة وهي كلمة مشابهه للبراني باللغة الفارسية (٢١). وبعد ان توفي(السلطان محمود الغزنوي) دخل في خدمة أبنه السلطان(مسعود بن محمود) سنة ٤٢١هـ وقدم إليه كتاب(القانون المسعودي) في الهيئة

والنجوم . ومقابل ذلك قدم إليه (السلطان مسعود) مالاً كثيراً، إلا أن البيروني رفضه .وموقف كهذا يذكرنا بالمفكرين المحدثين الذين رفضوا التكريم من حكامهم كالأستاذ عباس محمود العقاد في مصر والدكتور علي الوردي في العراق ، وهناك الكثير من امثالهم لا نستطيع ذكرهم في هذا البحث لان ذكرهم يبعدنا عن موضوع دراستنا ،ذلك ان هدف هؤلاء الموضوعية في الطرح العلمي والجرأة في قول الحق دون خوف او وجل لذا فان تكريمهم من الحكام مشوب بالمصلحة الذي قد يؤدي بالعالم الى مجانبة الحق وامر كهذا لا يتفق ومبدأه العلمي الصارم ، كما ان هدفهم الاصلاح والعدل ،فمتى تحقق لهم ذلك وعاش الناس في رفاهية ومساواة كانت هذه اعظم هدية لهم واجل تكريم . فالعلماء كالأنبياء ، كيف لا وهم ورثة الانبياء ، والانبياء هدفهم العدل ايضا ضد الظلم والعدوان .

صنف كتاباً في علم المعادن وقدمه إلى السلطان(مودود بن مسعود)الذي تولى الحكم سنة ٤٣٢هـ وهو كتاب(الجماهر في معرفة الجواهر) (٢٢). ويمدح العرب ولغتهم ومن مشهور قوله في ذلك (الهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسية). لكن لماذا هذا المدح للغة العرب ؟ ، لماذا ؟ اغلب الظن ان اللغة العربية هي لغة الحضارة آنذاك ، اذ بلغ الازدهار الحضاري في المدن العربية وخاصة مدينة بغداد ذروته ، بحيث اصبحت بغداد مركز استقطاب العلماء والمفكرين والادباء ، ولذا فان اللغة تزدهر بازدهار الحضارة ، ثم ان اللغة العربية لغة القرآن وامر كهذا دفع صاحبنا البيروني الى انتسابه الى اللغة العربية ، وما حصل في السابق يحصل في ايامنا الحاضرة بعدما اصبح المجتمع الغربي محط جذب للعقول حتى ان كثير من علمائنا اتخذ من المجتمع الغربي موطنا له بعد ان اكتسب جنسية البلد الذي حل فيه . واتخذ من اللغة الاجنبية لغةُ له يتحدث بها في بلاد الغرب ويرطن بها في بلادنا .

رحل إلى جرجان في سن ٢٥ حوالي ٣٨٨هـ/ ٩٩٩م ، إذ التحق ببلاط السلطان(أبو الحسن قابوس) و(شمس المعالي) ونشر هناك أول كتاب له هو (الآثار الباقية عن القرون الخالية) وحين عودته إلى موطنه التحق بحاشية الامير أبو العباس (مأمون بن مأمون) حاكم خوارزم شاه

الذي عهد اليه ببعض المهام السياسية نظراً لطلاقة لسانه ،وعند سقوط الامارة بيد (محمود بن سبكتكن) حاكم (غزنه) عام ٤٠٧هـ الحقه مع طائفة من العلماء إلى بلاطه ويبدو ان ظاهرة الاتصال بالسلطان من قبل المفكرين والفلاسفة كان امرا ما لوفا آنذاك واذا قرأنا سير العلماء العرب المسلمين نجدهم اما مقربين من السلطان او مبعدين عنه وامر كهذا يتوقف على آرائهم وطروحاتهم الفكرية المؤيدة او المعارضة للسلطان .

نشر البيروني ثاني مؤلفاته الكبرى (تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرذوله)، كما الف مؤلفين هما (القانون المسعودي) ، و (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم) أطلق عليه المستشرقون تسمية (بطليموس العرب). من اهتماماته الاساسية علم الانسان (الانثروبولوجيا)، بل انه ابو علم الانسان ، تأثر بـ (محمد بن عبدالله ، ارسطو ، بطليموس ، براهما غوبتا ، أبو عمر الخيام ، الخازني وزكريا القزويني) ونظام المدرسة (أشاعرة) (٢٣). ونظرا لأهمية البيروني فقد سميت فوهة بركانية على سطح القمر باسمه إلى جانب ٣٠٠ اسم لامع تم اختيارهم لتسمية الفوهات البركانية على القمر ومنهم الخوارزمي وأرسطو وأبن سينا. ولو عاش هؤلاء العلماء في زماننا لحصلوا على جائزة نوبل بكل فخر واعتزاز . ويبدو ان العلماء الغربيين يقدرون قيمة علماءنا القدماء اكثر منا بل ان المستشرقين هم من اكتشف بعض علماءنا العرب .كيف لا وقد كان علماءنا اساتذة الغرب في القرون الوسطى . والآن نحن طلبة لدى الغرب في العلوم .

وظل البيروني بعد عودته من الهند مقيماً في غزنة منقطعاً إلى البحث والدرس حتى توفاه الله عن عمر ناهز الثمانين عاماً ، في سنة ٤٤٠هـ . (١٠٤٨م) رحمه الله (٢٤). مكث فيها أكثر من نصف قرن قضاها بحثاً وتأليفاً وابداعاً وتصنيفاً (٢٥). وكانت وفاته في (الثاني من رجب) عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م (٢٦). وبمناسبة وفاته يقول ياقوت الحموي : دخل النيسابوري على البيروني ، والبيروني يجود بنفسه (يحتضر) ، وقد تحشرج نفسه ، وضاق به صدره ، فقال له في تلك الحال : كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة ؟ فقال له اشفاقاً عليه . افي هذه الحالة ؟ قال

لـه يـا هـذا ، أودع الـدنيا ، وأنـا عـالم بهـذه المسـألة ، الا يكـون خيـراً مـن ان اخليها ، وأنـا جاهـل بهـا ؟. فمـا كـان مـن النيسـابوري إلا أن اعـاد عليـه شـرح المسألة . وحفظـه اياهـا وعلمـه بهـا ، وخـرج مـن عنـده ، وهـو فـي الطريـق ، سـمع الصـراخ . ونعـي النـاعي . فمـا ظنـك برجـل علـى فـراش المـوت ، لا يلهيـه مـا هـو فيـه عـن العلـم والمعرفـة ، ولا يـدع زائـره دون أن يسـأله عـن مسألة مـن مسـائل علـم المواريـث ؟ وعنـده ان يـودع الـدنيا الفانيـة وهـو عـالم بتلك المسـألة ، خيـر مـن أن يمـوت وهـو جاهـل بهـا ، فيشـرحها لـه صـاحبه ، وما أن يخـرج مـن عنـده حتـى ترتفـع روحـه إلـى بارئهـا (٢٧). أيـن الآن نجـد مثل هذا العالم الجليـل العاشـق للعلـم وهـو علـى فـراش المـوت؟. ولا عجـب فـي ذلـك لان ديـدن العـالم الاخـلاص فـي العلـم ، لا تهمـه الـدنيا ولا يهمـه المـرض ولا حتى الموت عن اداء رسـالته مهمـا كلفـه ذلـك مـن جهـد ومهمـا اصـابه مـن حيف .

٢- منزلته العلمية

كان اهتمـام البيرونـي جوهريـاً فـي كـل مـا يـراه حولـه ،ففضـوله العلمـي قاده لنتـائج مهمـة جـداً لعلـوم مختلفـة . ويعتقـد ان العـدد الاجمـالي للكتـب التـي وضـعها طـوال حياتـه العلميـة (٤٠ عامـاً) مـن الدراسـة والاسـهامات العلميـة بلـغ (١٤٦ كتابـا) وبعـض المصـادر ترفـع هـذا العـدد إلـى ١٨٠ كتابـا ، فضـلاً عن الاوراق التـي تبلـغ ١٣٠٠٠ ورقـة ، والورقـة هـي وثيقـة مكتوبـة بخـط اليـد تكون من صفحة الـى صـفحتين ، وبنـاءً علـى ذلـك فانـه يسـتحق الاحتـرام بعـده باحثاً شـديد الرسـوخ فـي العلـم وعالمـاً مقتـدراً جـداً ، كمـا كـان مـن الرجـال البارزين في عصـره ، وأثـرت اسـهاماته العلميـة علـى العديـد مـن أوجـه الحيـاة [i].

٣-عصر البيروني

ان العصـر الـذي عـاش فيـه البيرونـي كـان عصـر اضـطرابات سياسـية ومغـامرات حربيـة ، لكـن مـن حسـنات هـذا العصـر أن ملوكـه كـانوا يحبـون العلـم ويرعـون العلمـاء والفلاسـفة ، ولـذا نجـد ان هـذا العصـر كـان زاخـراً

بالعلماء في شتى الميادين ، وقد تركوا آثارا عميقة في مسيرة تطور العلم ، فمنهم مسكويه والمعري ومنصور بن عراق والخجندي والحسن أبن الهيثم وأبن سينا ، وكان بينهما حوارات ومكاتبات في بحوث شتى تعلق جمها بكتاب ارسطو (السماء والعالم) ، و (عصر البيروني) هي تسمية لمؤرخ العلوم (سارتون) الذي أطلق على النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي (عصر البيروني)بالنسبة إلى تاريخ العلم العالمي ، ويصف العالم الشهير (سخاو) البيروني بأنه أكبر عقليه عرفها التاريخ . وقد امتاز بروحه العلمية وتسامحه واخلاصه للحقيقة وانكبابه على البحث وامتازت كتاباته بالبراهين المادية واجرائه التجارب اعتماداً على الاستقراء (٢٨).

ان موقف الملوك من البيروني يشبه ماحدث لبعض الفلاسفة الالمان ومن بينهم الفيلسوف عمانؤيل كانت فمن حسن حضه انه عاش معظم حياته في ظل الملك المستبد المستنير فردريك الثاني ملك بروسيا وقد حكم هذا الملك اربعين سنة وبالتالي فان معظم كتبه صدرت في عهده. لكن من سوء حظ العالم او الفيلسوف وجود حاكم مستبد غير مستنير يرى في رايه الحقيقة المطلقة وماعداه باطلا بطلانا تاما فما على العالم في هذه الحال الا الرحيل الى بلد يُحترم فيه الراي والفكر .

المبحث الثاني : طرق البحث ومناهجه عند البيروني

تناول البيروني بالتحليل والنقد مناهج المسلمين في دراسة الاديان وما تعلق بها من طقوس وعادات ، واعتمد على:

اولا : طرق البحث :

١-الملاحظة العلمية :

لئن فضل البيروني المصادر المكتوبة على المصادر الشفاهية في مادة الأديان، الا انه جعل كليهما مرتبة دون المعاينة او المشاهدة(الملاحظة)، ويبدو أنه تأكد من ان المكتوب كان في البدء شفوياً وأختلط فيه – لحظة التدوين – الاسطوري بالواقعي ، ولعبت فيه الذاكرة الدينية

الجماعية دوراً في رسم معالم (الآخر الأقصى) الذي يخالفه في المعتقد [٢٩].

٢- النظرة العقلية للظواهر الاجتماعية :

أن الاخبار المدونة تبقى عند البيروني رافداً مهماً في معرفة بقية الحضارات والديانات ، ولكن هذا الرافد محدود الآفاق وملىء بالنقائض من منظورين أولهما أنه يجمع صحيح الاخبار وفاسدها ويمزج بين الواقع والخيال وثانيهما أنه لا يستجيب إلى تطور الزمن وتغير المنظومات ، فالظواهر الدينية متغيرة ، ومتطورة ، ويبدو أن هذا الطريقة في البحث ليس من ابتكار البيروني بل هي وجه من وجوه الثقافة العربية الإسلامية ، ولكنه وجه خافت لا يسمع صوته أمام هيمنة ثقافة السماع ومنهج المأثور[٣٠]. وبهذا المعنى فهو كابن خلدون الذي كان يستخدم العقل في دراسة الماضي رغم سيطرة التيار النقلي وهيمنته على العقول.

٣-النظرة الموضوعية للظواهر الاجتماعية

يؤكد البيروني على استحالة ادراك الظواهر الاجتماعية دون ان تحدد من حيث الزمان والمكان ، فليس من المفيد ان نتحدث عن هذه الظواهر المختلفة الافتراضية التي ابتكرها الخيال دون أن ندركها معاينة في سياقها التاريخي ، وقد نبه البيروني إلى ارتباط الحيز بحالة الاخباري ومشاغله ، فهو يقول(أما متعاطف مع الملة أو متحامل عليها)، ذلك ان العواطف والانفعالات والميول والاتجاهات تفسد النظرة الموضوعية للباحث المدقق . وامر كهذا يؤثر في طبيعة الاخبار وصدقها [٣١].

ان الموضوعية تشكل سمة اساسية للفكر النقدي ،وجوهر الموضوعية هو الاستبعاد الكلي لكل العوامل الذاتية ، وهذا يعني السمو فوق الرغبات الذاتية ، والوقوف موقف الحياد المطلق بين الآراء والأفكار المختلفة ، فهو يقول مثلاً (تنزيه النفس من العوارض المردئة لأكثر الخلق والأسباب المعدية لصاحبها على الحق وهي كالعادة المألوفة والتعصب والتضافر وأتباع الهوى والتغالب بالرئاسة وأشبه ذلك) وكان البيروني ينفر

من الكُتاب الذين يلجأون إلى تزييف آراء من يخالفهم في الرأي والعقيدة أو المذهب (٣٢). تتجلى الموضوعية عند البيروني في(التجربة والملاحظة) المتمثلة في دأبه المتواصل واصراره على معرفة الحقيقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً (٣٣) .

ثانيا :مناهج البحث الاجتماعي عند البيروني :

١-المنهج المقارن

أشار المستشرق الروسي (ف، روزين) قبل اكثر من قرن إلى أن البيروني قد امتلك أهم سلاح من اسلحة العلم الحديث الا وهو منهج الدراسة المقارنة للأديان .لكن هناك منهجان آخران لم تذكرهما الدراسات وهما المنهج التجريبي والمنهج النقدي، ويعود السبب في ذلك إلى عوامل لعل أهمها ان الدراسة المقارنة قد ارتبطت عنده بدراسة الاديان المختلفة ، فضلا عن المنهج النقدي الذي يتضاعف الاهتمام به اليوم بالنظر لغيابه عن حياتنا الثقافية والفكرية والعلمية .

٢-المنهج النقدي

المنهج النقدي تسلل إلى الحضارة العربية بعد اتساع وتطور حركة الترجمة ، وشق طريقه في مؤلفات العرب المسلمين بعد أن اصبح حاجة موضوعية للحياة الفكرية الجديدة في المجتمع ، وفضلا عن التعامل العلمي السليم مع المؤلفات المترجمة برز اتجاهان آخران متناقضان أولهما يدعو إلى نقد كل ما هو قادم من الخارج بحجة تعارضه مع تعاليم الدين الإسلامي . وثانيها التقبل الاعمى للمنقول من الفكر والانبهار بكل ما هو جديد (٣٤). والمنهج هو الطريق الذي يسلكه العالم لإنجاز بحثه ، وطريقة البحث تختلف من عالم إلى آخر حسب اختلاف موضوع البحث ، والبيروني عالم موسوعي له بحوث في الكثير من العلوم التي تتطلب طرقاً وأدوات مختلفة في البحث ،لذا فأن المنهج النقدي الذي اتبعه قد يختلف في بعض التفاصيل من حالة إلى اخرى لكنه يبقى واحداً في جوهره(٣٥).

٣-منهج الشك

ينطلق البيروني في تقييمه للمعلوم ومصادر معطياته من الشك ان كان ذلك يتعلق بالمصادر والكتب التاريخية أو تعلق بنتائج الدراسات في مجال العلوم ،والشك عنده ليس موقفاً سلبياً متعمداً تجاه العلماء الآخرين ، وليس فقط عملية رفض لمن سبقه في ميادين البحث ، بل هو الخطوة الأولى التي يخطوها الباحث نحو الحقيقة. لذا فانه يدعو إلى التروي في قبول ما يوضع بين يديه من حقائق . فهو يقول (على أن الأصل الذي اصلته والطريق الذي مهدته ليس بالقريب المأخذ بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه ان يكون غير موصول إليه لكثرة الاباطيل التي تدخل جملة الاخبار) (٣٦). وازاء ذلك يقول المستشرق الروسي كراتشكوفسكي عن البيروني (لا نملك ازاء هذا الانحناء في خشوع واحترام أمام النتائج العلمية الباهرة التي توصل إليها ، والتراث العلمي الذي انتجه في ظروف الزمان الذي عاش فيه (٣٧).

كان البيروني بارعا في قواعد المنهج العلمي التي استخدمها في جمع الحقائق والمعلومات وتصنيفها وتحليلها عند تفسير الظواهر والعمليات والاحداث التي تعامل معها في التخصصات العلمية والاجتماعية التي اهتم بها . ولولا قواعد المنهج التي استخدمها في البحث وتقصي الحقائق لما تميز في البحث العلمي والتأليف والكتابة (٣٨) .

شرح منهجه في البحث العلمي في كتابه الموسوم " الاثار الباقية عن القرون الخالية " ، ففي هذا الكتاب وضح كيف ان مناهج البحث تمكن الباحث من الخوض في موضوع البحث وتحليل عناصره الاساسية واغناء هذه العناصر بالمعلومات الوصفية والاستنتاجات التحليلية التي تنمي موضوع البحث وتفسر جوانبه الظاهرة والكامنة . كأن البيروني يرى ان تحصيل المعرفة لا يمكن ان يتم الا من خلال البحث والتجربة (٣٩) .

وحذر من التقليد وطالب كل صاحب راي ان يتأكد من آرائه ويستوثقها ويتوصل الى مصداقيتها وصوابتيها قبل ان يجاهر بها ويعلنها

للملأ ويتفوه بها وما يمكن ان تقوم به من افعال واحداث [٤٠] . وطالب البيروني بحسن استخدام العقل في اخضاع الاشياء المدروسة الى التجريب والقياس ،وعمل كهذا يتناقض مع النقل والاستنساخ والاقتباس بدون تحقيق وتجريب وقياس . وكان البيروني يرجع للمصادر الاصلية عند قيامه بالبحث العلمي ويلتزم بما ورد فيها التزاما تمليه عليه امانته العلمية ، اذ كان لا يطمئن مطلقا الى النقل ممن استعمل المصادر واستعان بها في جمع الحقائق . انه كان يذهب بنفسه الى المصادر ليتأكد من صحة ومصداقية ما ينقل منها وبخاصة اذ شعر بضعف المصادر وضحالة معلوماتها ومحدودية عملها وقلة حقائقها وتناقضها مع ما تنقله من المصادر الاخرى [٤١]. والتحذير من التقليد امر سابق على البيروني ، نجد ذلك عند المعتزلة ونجده عند الامام الغزالي اذ يقول (اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى في العمى والظلال) . ونجده عند كثير من الفلاسفة العرب ومن ابرزهم ابن خلدون

ورغبته في نقل الحقائق الواضحة وتفسيرها والتأكد من اصالتها ومصداقيتها قد دفعته الى تعلم بعض اللغات الاصلية من الأمم والشعوب التي كتب عنها او درسها . فقد تعلم اليونانية والفارسية بعد ان سافر الى البلدان الاصلية التي تتكلم هذه اللغات . اذ تعلمها من اشهر اساتذة هذه اللغات واختلط بالشعوب التي تتكلم اللغات واطلع على اهم واشهر المصادر التي يتعلم منها الفرد هذه اللغات . وبعد تعلم اليونانية والفارسية اخذ ينهل من مصادر العلوم التي كانت مدونة بهاتين اللغتين ، اذ ترجم عنها الكثير من الحقائق في الفيزياء والكيمياء والطب والفلسفة والرياضيات . كما تعلم اللغة السنسكريتية واجاد لهجاتها المختلفة ايضا عندما اراد ان يؤلف كتاب " الهند الكبير " ، علاوة على استقراره في الهند مدة يقال انها بلغت اربعين سنة [٤٢] .

واهتم بالرياضيات وعلم الفلك والطب، وشغفه في اكتساب المعارف الاصلية في هذه العلوم جعله ميالا الى اسلوب الاستقصاء والبحث في طلب المعرفة . وهنا تتضح عظمته وسبقه في تدوين المعارف حول هذه العلوم وتنظيرها وتحليل عناصرها الاساسية من خلال الاسلوب

الاستشـــرافي الـــذي اعتمـــده فـــي بحوثـــه ودراســـاته العلميـــة [٤٣] . وقـــد كـــان هـــذا الاســـلوب البحثـــي منتشـــرا فـــي زمانـــه ،اذ كانـــت ركيزتـــه التصـــوف ، اذ ان الباحثين الـذين يسـتعملون هـذا الاسـلوب فـي الدراسـة وتقصـي الحقـائق يعتقـدون بـان المعرفـة لا تحصـل الا عـن طريـق مجاهـدة الـنفس وترويضـها بوسـائل مهمـة منهـا الزهـد والاعتكـاف علـى الدراسـة وطلـب العلـم والبحـث والتركيـز علـى التـأملات الباطنيـة واعتمـاد الاسـتقراء فـي اشـتقاق الحقـائق والفـروض العلميـة للموضـوعات التـي تخصـص بهـا البيرونـي سـواء كانـت موضـوعات طبيعيـة او اجتماعيـة او أنثروبولوجيـة . لكنـه مـزج بـين اسـلوب الاشـراق واسـاليب الملاحظـة الحسـية والتجريـب والاسـتنباط والتعليـل وصـولا الـى معرفة الحقيقـة [٤٤] . هنـاك ثمـة شـبه بـين العلمـاء والمتصـوفة فـي التنقـل فـي البلـدان طلبـا للمعرفـة، ولـو ان بعـض المتصـوفة كـابي يزيـد البسـطامي مـثلا مكث في بسطام ولـم يبـرح مكانـه وحينمـا سَـئل عـن ذلـك قـال : ان صـاحبي لا يسافر، فكيف اسـافر والفـارق بينهمـا ان العـالم يكـون كالراهـب فـي طلـب العلـم ، او كما قـال ابـراهيم ابـن سـيار النظـام المعتزلـي (العلـم لا يعطيـك بعضـه الا اذا اعطيتـه كلـك) . واما المتصـوف فيعتمـد فـي طلـب المعرفـة علـى الكشـف الصوفي (العرفان) خلاف العالم الذي يعتمد على البرهان .

ثالثا :اصول البحث العلمي عند البيروني :

١- الاعتماد على اسلوب الملاحظة واسلوب الملاحظة بالمشاركة.
٢- الاعتماد على التجارب الميدانية والمختبرية والمعملية .
٣- استخدام العقل في الاستنباط والتعليل والتحليل العلمي [٤٥] .
٤- رفض الوسائل والطرق غير الحسية للوصول الى المعرفة .
٥- رفض التقليد والنقل والاقتباس من اعمال الباحثين الاخرين.
٦- الرجوع الى المصادر والكتب والادبيات الاصيلة.
٧- التأكد من عدم فساد الآراء او الافكار قبل جهرها.
٨- الاعتماد على اساليب القياس الكمي والاستقصاء الحسي [٤٦] .
٩- استمرار البحث والمواظبة عليه وعدم الانقطاع عنه.
١٠.عدم التركيز على الجوانب النظرية والاكاديمية للبحث العلمي[٤٧]

رابعـــا :تطـــوير البيرونـــي منـــاهج البحـــث الاجتماعي والانثروبولوجي :

١-ارســاء قواعــد المــنهج التــاريخي والمقــارن مــن خــلال مؤلفــه الموســوم " الآثــار الباقيــة فــي القــرون الخاليــة " . ففــي هــذا الكتــاب نــراه يتبــع أصــول البحث وخطواته الرئيسية وهي :

أ- اللجوء الى المصادر الأمينة والصادقة (٤٨).

ب- مقارنة المعلومات التي حصل عليها من مصادر مختلفة.

ج- نقد المعلومات وتقييمها والاخذ بما تثبت صحته منها.

٢- زاوج من خلالها بين علم الفلك والتاريخ (٤٩) .

٣-كان البيرونــي يبــدئ موضــوعاته بمقدمــة قصــيرة، وبعــد ذلــك يقــوم بشــرح الموضوعات التي قدم عنها بالتفصيل والاسهاب .

٤-ارسى دعائم الملاحظة بالمشاركة .

٥- ارسى قواعد المنهج الكمي واستخدامه للرياضيات في توضيح الظواهر الاجتماعية.

٦- استخدامه المنهج المقارن

المبحـــث الثالـــث: اســـهامات البيرونـــي فـــي تنميـــة علـــم الاجتماع :

ان التــراث الاجتمــاعي الــذي تركــه البيرونــي يكمــن فــي دراســاته الاجتماعية والأنثروبولوجيا التي قام بها في الهند والتي نشرها في مؤلفه الشهير " كتاب الهند الكبير " .والاسهامات الاجتماعية التي قدمها لحقلي السيسيولوجيا يمكن تحديدها بثمان نقاط اساسية وهي على النحو الاتي :

١-علم الاجتماع

أنطلق البيروني في أول رحلة علمية الى الهند لدراسة المجتمع الهندي برعاية السلطان (محمود الغزنوي) قريباً من العام ١٠١٧ للميلاد . ولدى وصوله إليها سُحر بالمجتمع الهندي وبالثقافة الهندية ، وفي كتابه الهند قدم شرحاً مفصلاً للظروف التاريخية والاجتماعية ،فضلاً عن الاوجه الاخرى لهذه البلاد ،وفي الوقت الذي أمضاه اكتشف الديانة الهندوسية من

يد معلميها ، وفي حواراته معهم كان سعيداً بتعليمهم الفلسفة والعلوم الاغريقية والعربية ، ونجح كتابة في وضع دين وفلسفة الهند في سياقهما الثقافي والاجتماعي ، وحاول تفسير نظام الطبقات الاجتماعية وطقوس الزواج والشعائر الجنائزية فيها ،كما شرح مبدأ المكانة عندهم ، وبعد تعلمه اللغة السنسكريتية أخذ يدرس النصوص الهندية الاصلية ويترجم الكثير منها إلى العربية ، في حين يتعامل كتاب آخر عنوانه (باتانجال) مع حقيقة الروح وتركها الجسد بعد الموت ، وفي كتابة الهند يقدم فرضية مفادها أن وادي الاندوز لابد وأنه حوض بحر قديم . وهي فكرة لم يطرحها احد من قبله (٥٠).

٢-علم اجتماع الادب :

درس البيروني اللغة الهندية وجذورها الاجتماعية واثرها في حركة المجتمع وتطوره . كما قارن بين اللغة الهندية واللغة العربية واللغات الاخرى التي اجادها كاللغة الفارسية واليونانية . علما بان تعلمه للغات المختلفة كالهندية (السنسكريتية) والفارسية والعبرية واليونانية قد مكنه من دراسة النظم الاجتماعية للمجتمعات التي تتكلم اليونانية [٥١] . وتعلم اللغات املى عليه السفر الى تلك المجتمعات والاختلاط باهلها والتعرف على عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم واخلاقهم ، ووجد بان اخلاق وعادات وقيم المجتمع انما تعتمد على مناخه وطبيعته الجغرافية ونباتاته الطبيعية والموارد الاقتصادية التي يتمتع بها والبيروني بهذا الراي قد سبق العلامة العربي ابن خلدون والعلامة الغربي مونتسكيو . ولم يكتف البيروني بدراسة هذه اللغات الاجنبية ، بل درس آدابها وربط بين طبيعة المجتمع وحركته الادبية . ذلك انه شاهد بان الآدب السائد في المجتمع يتصل بظروفه ومعطياته الاجتماعية والاقتصادية التي تجعله ينمو ويتطور او تجعله ينكمش ويتخلف . لذا يخبرنا البيروني بان كلا من اللغة والادب هما نتاج المجتمع والظروف الاجتماعية السائدة ، اي انهما يتأثران بالواقع الاجتماعي وما ينطوي عليه هذا الواقع من عناصر بنيوية وقوى مؤثرة [٥٢] . وكما تتأثر اللغة والادب بالمجتمع فانهما يوثران ايضا في المجتمع ويتركان

بصماتهما الثابتة عليه . لذا فان كل من اللغة والادب يتأثران بالمجتمع ويوثران فيه بطريقة لا يمكن تجاهلها بأية صورة من الصور .

كما درس البيروني ايضا مختلف مجالات الثقافة في المجتمعات التي سافر اليها وتعلم لغاتها كبلاد فارس والهند واليونان ، علاوة على دراسته الفنون السائدة هناك وقارنها بالآداب من حيث اهميتها وانجذاب الناس اليها ودورها في تغير السمات الثقافية والاجتماعية لهذه الحضارات . واخيرا كرس البيروني جل جهوده في تحليل واقع العلاقة المتفاعلة بين المجتمع والادب والفن واشار الى اننا لا نستطيع فصل المجتمع عن الادب او فصل المجتمع عن الفن ،كُلاً من الادب والفن عنصران اساسيان من عناصر البناء الاجتماعي (٥٣) .

كما بحث البيروني في دلالات (الله) و (الرب) في اللغات العربية والعبرية والسريانية عن طريق القرآن والتوراة واستنتج ان العربية لا تستوعب مقولة الابوة كما في الدين المسيحي لأن الولد والأبن في العربية متقاربا المعنى ، وما وراء الولد من الوالدين والولادة منفي عن معاني الربوبية ، وما عدا لغة العرب يتسع ذلك حتى تكون المخاطبة بالسيد ، وهذا المفهوم تشترك فيه اليهودية والمسيحية ، والخلاف بين الاسلام والمسيحية خلاف لغوي بالأساس (٥٤).

٣-علم الاجتماع الديني :

من اهم الاسهامات التي قدمها البيروني لتنمية النظرية الاجتماعية والأنثروبولوجيا هي تطوير دراسته للأديان والفلسفات والشرائع عند المجتمعات التي زارها ودرسها وحلل عناصر بنائها الاجتماعي . فقد درس الوظائف الاجتماعية للدين وأهميته في ظهور القيم والمبادئ وبلورتها .وربطه بين الدين والفلسفة ، إذ أنه يعتقد بأن الفلسفة تكون مشتقة من الفكر الديني السائد أو المتداول ، وأن مصدر الشرائع هو الدين ، فالدين يمنح المشرع المعلومات والحقائق التي تجعله قادراً على تشريع القوانين المستمدة من الدين وغير المتعارضة معه(٥٥). كما أنه ربط بين الحياتين الدينية والسياسية من جهة، وبين الدينية والاقتصادية من جهة أخرى .

يعتقد البيروني بأن رجل الدين يمكن أن يكون سياسياً وأن السياسي يمكن أن يكون رجل دين ، إذ لا تعارض أو تناقض بين السياسة والدين [٥٦] .وهذه دعوة بعدم فصل الدين عن السياسة وعن الفلسفة ،ذلك ان الدين والسياسة والفلسفة جذور ولا يمكن فهم احدهما دون فهم الآخر وهذه الموضوعات شغلت اهتمام اغلب الفلاسفة والمفكرين قديما وحديثا ، لدرجة ان بعض المفكرين العرب كالإمام الغزالي يعتقد بان الدين عامل حاسم في التقدم والرقي بشرط تمسك المجتمع بأهدابه وبتعاليمه التي ترمي الى العمل وطلب العلم والاخلاص والصدق ... الخ كما نجد في الغرب عالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر الذي يرى بان الدين البروتستانتي في الغرب عامل محفز على قيام النهضة الصناعية لا نه يدعو الى العلم والعمل والغنى وجمع الثروات ، فالدين اذا استُخدم للتقدم يؤدي للتقدم والعكس هو الصحيح ،كما يعتقد بأن الدين ينظم الحياة الاقتصادية في المجتمع ،ولذا نجد ان البيروني يرى ان الدين يدعو الى الاقتصاد في الأنفاق وعدم التبذير، ويدعو الى الصدق والإخلاص في العمل وعدم التعامل مع الغش ،لأن الغش يفسد الحياة الاقتصادية ويجعل الاقتصاد بعيداً كل البعد عن الدين . كما كشف عن طبيعة الأساطير المؤثرة في الدين ، وتفسير الدين للحياتين الأولى والثانية . علاوة على تعرضه لآراء الهنود في التصوف وإرجاعه الديانة الهندية الى أصول يونانية ومسيحية [٥٧]. ناهيك عن أهمية الجهود التي بذلها في توضيح الأسس الفلسفية للدين ، إذ أن الدين يستند على أسس فلسفية تبرره وتجعل الفرد يؤمن به ويتمسك بتعاليمه ومبادئه الأساسية .

يتصور اهل الهند العالم حسب ما ذكره البيروني في كتابه (الهند) ، ثلاثة أقسام مرتبة من الاعلى إلى الاسفل ففي العالم العلوي توجد (الجنة) حيث النعيم والثواب ، وفي السفلي توجد (جهنم) حيث العذاب والشقاء ، وبين العالمين يوجد (عالم الناس) حيث التعب والاكتساب ، وبموجب ذلك احالنا الى اساطير تتعلق بـ (زوس) و (ديادوس) ، وهو ينتقد سابقيه على اهمالهم البعد الاسطوري في ديانة الهند [٥٨]، وكأن دراسة الاساطير مدخل مهم لدراسة الاديان ، وقد حصر هذا الاستنتاج في منظومة الهند الدينية دون تعميم ،لان التعميم على بقية الاديان يعرضه إلى الحرج.

٤ – البناء الاجتماعي

درس البيروني خواص البناء الاجتماعي في المجتمعات التي زارها وتخصص في دراستها كالمجتمع الفارسي والهندي واليوناني . فقد عَرف البناء الاجتماعي للمجتمع بالأجزاء الأساسية التي يتكون منها ، ولكل جزء من هذه الأجزاء دوره في ربط هذا البناء وشده وتمكينه من تحقيق أهدافه الرئيسية [٥٩] . كما قارن بين الأبنية الاجتماعية للمجتمعات التي تخصص في دراستها ، إذ لاحظ بان أسباب الفروقات بين بناء اجتماعي وآخر إنما ترجع الى(طبيعة المهنة) التي يمارسها المجتمع و(كثافته السكانية) و(التوزيع الجغرافي للسكان) . أن بناء أي مجتمع كما يخبرنا البيروني يتكون من عناصر مادية ومعنوية واجتماعية . وهذه العناصر تتفاعل بعضها مع البعض الآخر وتعطي الخصوصية الرئيسية للمجتمع وترسم حركته التطورية مع تحديد الموانع التي تقف حجر عثرة في طريق تقدم المجتمع ورقية [٦٠].

ومن الجدير بالذكر ان دراسة البناء الاجتماعي للبيروني لم تكن دراسة نظرية صرفة ، بل كانت دراسة تعتمد على المعايشة والتجريب . فالمجتمع يمكن تشبيهه كما يقول البيروني بالكائن الحيواني عند دراسة مكوناته البنيوية . ذلك أن المجتمع يتكون من بنى أساسية وأن لكل بناء وظيفة محددة كما هي الحال في الكائن الحيواني الذي يتكون من مجموعة من أجهزة وأعضاء ،لكل منها وظيفته الخاصة . فاي تقصير في أي بناء من أبنية الكائن العضوي بوظائفه قد يؤدي الى عطل الكائن العضوي، وعجزه عن البقاء والاستمرار وكذلك الأمر في حالة بناء الكائن الاجتماعي ، إذ أنه قد يتعرض إلى الخلل أو التلف الذي يضر بالكائن الاجتماعي ويؤدي به إلى التوقف عن العمل كلياً [٦١] . وهكذا يقارن البيروني بين الكائنين العضوي والاجتماعي من حيث العناصر التكوينية والوظائف والتكامل .

٥–العلاقات الاجتماعية :

درس البيروني العلاقات الاجتماعية في المجتمع الهندي ،اذ قسم هذه العلاقات الى صنفين رئيسين هما العلاقات بين الجماعات و المؤسسات

والمجتمعات المحلية والكبيرة[٦٢] وحلل انماط هذه العلاقات، اذ قال بان العلاقات الاجتماعية سواء كانت بين الافراد او بين الجماعات والمؤسسات والمجتمعات تصنف الى نوعين هما العلاقات الايجابية المبنية على التعاون والتآزر والمحبة و التناغم . والعلاقات السلبية المبنية على الاختلاف والتناحر والعداوة والبغضاء. علما انه يخبرنا بأن العلاقات الايجابية تقود الى التماسك والوحدة والقوة وبالتالي غياب الاسباب الداعية الى تحقيق الاهداف والمصالح . بينما العلاقات السلبية تقود الى الفرقة والتناحر والتداعي والانهيار وبالتالي غياب الاسباب الموضوعية الداعية الى تحقيق الطموحات والاهداف المتوخاة . لذا دعا الى ضرورة احلال العلاقات الايجابية محل العلاقات السلبية في المجتمع لكي يكون بحالة من القوة و الاقتدار والمنعة[٦٣] .

ويشير البيروني في سياق دراسته للعلاقات الى ان للعلاقات اسبابها ودوافعها وآثارها القريبة والبعيدة . فمن اسباب العلاقات :الاسباب الاقتصادية والاجتماعية والروحية والعاطفية و الاسرية والسياسية والعسكرية . اما آثار العلاقات فقد تكون بناءة وفاعلة او تكون هدامة ومخربة للإنسان والجماعة والمجتمع . كما يعتقد بان العلاقات الاجتماعية التي تقع بين الافراد والجماعات قد تكون مستمرة او دائميه او تكون عرضية و مؤقتة ، اذ لا تدوم اكثر من ساعات معينة .

٦- الطبقات الاجتماعية:

يرى البيروني أن تصورات الطبقة الدنيا العامة في المجتمع الهندي للعقيدة تختلف عن تصورات الطبقة العليا (الخاصة) ، فهو يقول (إنما اختلف اعتقاد الخاص والعام في كل ملة) . وهذا يعني أن الطبقة الدنيا (العامة) في كل المنظومات الدينية تميل إلى التقليد دون تدبر وتقبل على الطقوس الحسية دون تبصر ،كما أنه يرى أن الحيز الجغرافي والخصوصيات الثقافية لا تحول دون الانضمام في نواميس المعتقد وأن كان خفياً . والبيروني يؤمن بتعدد الافكار وبوحدة جواهرها واللغة ليست مجرد أداة تواصل بل هي رؤية للكون وموقف منه ، وهذا التباين بين

المنظومتين متعـدد الوجـوه ، فمـن جهـة سـمي الشـيء الواحـد فيهـا بعـدة اسـماء ، ويصعب الالمام قبل الكلمـات التـي لهـا نفـس الدلالـة ، ومـن جهـة ثانيـة تنقسـم لغـتهم إلـى مصـون فصـيح ،لا يرجـع اليـه الا الطبقـات العليـا (الفضـلاء والمهـرة) . وكـل هـذه الفروقـات تجعـل مـن العسـير فهـم الثقافـة الهنديـة مـن خلال مرجعية اللغة وذلك لتبـاين اصـوات كـل لغـة وهـذا مـا يعلـل لنـا تحريـف المؤلفين المسلمين والناسخين من بعدهم لأفكارهم وكتبهم (٦٤).

درس البيرونـي نظـام الطبقـات الاجتماعيـة فـي الهنـد ، اذ قسـم الطبقات وفقـا للمهـن و الاعمـال التـي يمارسـها الافـراد . فهنـاك الطبقـة الدينيـة التي تحتـل المكانـة العاليـة و المتميـزة فـي المجتمـع ، وهنـاك الطبقـة العسـكرية او طبقـة المحـاربين التـي تـأتي مـن حيـث الأهميـة والفعاليـة والقدسـية بعـد الطبقـة الدينيـة ، وهنـاك الطبقـة الزراعيـة التـي تتكـون مـن المـزارعين الكبـار والمـزارعين الصـغار والفلاحـين فضـلاً عـن الطبقـة التجاريـة التـي تهـتم بعمليـات البيـع والشـراء وتبـادل السـلع .واخيـرا هنـاك طبقـة الصـناع والطبقـة المنبـوذة التـي تمـتهن الاعمـال الوضـيعة التـي لا يحترمهـا النـاس فـي حيـاتهم العامة والخاصة (٦٥) .

ويهـتم البيرونـي بدراسـة العوامـل المسـؤولة عـن الانتمـاءات الطبقيـة فيـذكر العديـد مـن هـذه العوامـل اهمهـا المهنـة التـي يمارسـها الافـراد والـدخل وانحـدار الاسـرة والملكيـة المنقولـة وغيـر المنقولـة والقـوة السياسـية والعسـكرية التي يتمتع بهـا الأفـراد. فضـلا عـن العوامـل النفسـية التـي تجعـل الفـرد يشـعر بأنه عضوا في طبقة دون الطبقة الأخرى (٦٦) .

٧- الا نتقال الاجتماعي

فضـلا عـن دراسـته موضـوع الطبقـات الاجتماعيـة ، إذ إن الفـرد لا يبقى فـي طبقـة بـل ينتقـل مـن طبقـة الـى أخـرى بنـاءً علـى الإنجـازات التـي يحققهـا أو الاخفاقـات التـي يتعـرض لهـا فـي الحيـاة . وظـاهرة الانتقـال الاجتماعي كمـا يخبرنـا البيرونـي لا تمـس الفـرد الواحـد بـل تمـس بقيـة أفـراد أسرته أو عشيرته أو قبيلته .

وأوضح البيروني كيف ان الهنود يعتقدون في قوة موجودة وجوداً حقيقياً لا تدرك بالحس ، وإنما تعقلها النفس ، وتحيط بصفاتها الفكرة التي يسمونها (ايشفر) وهي معبودهم الذي خلقهم وخلق الكون ، وسوف نجد ان البيروني قد عرض ايضاً فكرة البناء الاجتماعي الذي وصفه في فصل بعنوان (في ذكر الطبقات التي يسمونها ألواناً وما دونها) وأوضح كيف ان المجتمع الهندي يسود فيه النظام الطبقي المغلق . ولم يقتصر وصف البيروني على تلك الجوانب الدينية والاجتماعية وإنما تناول فضلاً عن ذلك اللغة الهندية وقارنها باللغة العربية وقسم اللغة الهندية إلى كلام دارج مبتذل يستخدمه السوقة ، وإلى مصون فصيح يتعلق بالتصاريف والاشتقاقات ، ودقائق النحو (٦٧).

المبحث الرابع :الانثروبولوجيا عند البيروني

حينما بدأ الإسلام بالانتشار عند منتصف القرن السابع الميلادي وحتى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً ، بدأت معه بوادر الحضارة الإسلامية آنذاك بالتكوين والازدهار ، وقد تضمنت هذه الحضارة : الآداب والاخلاق والفلسفة والمنطق ، كما كانت ذات تأثيرات خاصة في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية، وقد اقتضت الاوضاع الجديدة التي احدثتها الفتوحات العربية الإسلامية الاهتمام بدراسة احوال الناس في البلاد المفتوحة وسبل ادارتها ، إذ أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم ، ولذلك برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية ، كمعجم البلدان للحموي والموسوعات الكبيرة في القرن الرابع عشر الميلادي مثل (مسالك الامصار لأبن فضل)، و(نهاية الارب للنويري) ، إلى جانب اهتمام هذه الكتب الموسوعية بشؤون العمران فقد تميزت مادتها بالاعتماد على المشاهدة والخبرة الشخصية وهذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الانثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية ، ومن بين العلماء الذين تناولوا موضوع الانثروبولوجيا البيروني فقد اهتم بوصف اقليم الهند ،ووضع كتاباً عن الهند بعنوان (تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) . وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية

وانماط ثقافية ، واهتم بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس ، وأبرز حقيقة أن الدين يؤدي الدور المهم في تكبيل الحياة الهندية ، وتوجيه سلوك الافراد والجماعات وصياغة القيم والمعتقدات (٦٨).

كما ان البيروني بالغ في عرض أوجه التباين بين المجتمع الهندي والمجتمع العربي الإسلامي في نظام اللغة والتصورات الدينية والعادات والثقافة والصفات الاخلاقية وغيرها ، ولكن مدقق النظر يكتشف أنه عمل على نفي هذه الصلة بين المجتمعين ، فأهل الهند لهم كتباً في الكلام والزهد والتأله وطلب الخلاص من الدنيا ، ولو كان هناك تبايناً تاماً بين المجتمعين لما حدث التماثل وأن كان جزئياً بينهما فيما يتعلق بمجموعة من القيم . وبموجب ذلك نقول ان هذا التذبذب في مواقف الرجل بخصوص الإسلام وكونية القوانين المتحكمة في المنظومات الدينية الهندية واليونانية والمسيحية ، حالت دون تأسيس علم نظري يدرس الاديان ويبحث في قوانينها(٦٩).

يؤكد البيروني على وجود روافد مشتركة بين الذاكرات الدينية وأن اختلفت ازمنتها وانساقها، ولذا نجده في مواقع مختلفة من كتابه يقارن بين ثقافة مجتمع الهند وثقافة مجتمع اليونان وأن باعد بينهما حيز المكان ، وهذا يعني أن الظاهرات الدينية وأن تباينت في ظاهرها فانها تشترك في مجموعة من الرموز والمفاهيم ،هذه المشابهة تجلت في التصوف لتقارب الامر بين جميعهم في الحلول والاتحاد ،ونتساءل هنا فنقول : هل يعني ذلك ان البيروني ادرك ان التصوف نمط كوني من الفكر عايش كل المنظومات الدينية وأثر فيها ، لكننا نلمس من كلامه دعوة إلى المقارنة بين المتصوفة في مرجعيا تهم الثقافية ،وهو بعمله هذا شرع لعلم التصوف المقارن ، فهو يقارن الديانة الهندية ببقية الاديان من خلال رموزها التأسيسية وهذا الضرب من المقارنة يعكس قدرة على التأليف واختزال الديانات في علامات دالة عليها(٧٠).

وعند حديثه عن نظرية الاستنساخ عند الهندوسي عبر كلام حكيمهم (باسدو) وربطه بقول للمسيح ثم ربط كلام كليهما بحكمة اليونانيين ، نكتشف ان التراث الديني الكوني عند البيروني يبطن تماثلاً وأن أظهر تبايناً ، وهناك خيط خفي بين قول باسدو حكيم الهند وآراء سقراط فيلسوف اليونان وما ذكره المسيح(٧١).

الخلاصة والتوصيات :

١-الخلاصة

١) استند البيروني في دراسته الاجتماعية والأنثروبولوجيا على مناهج بحث علمية ورصينة تمثلت بالملاحظة والملاحظة بالمشاركة عبر تنقلاته واسفاره الميدانية . واستخدم العقل في الاستنباط والتحليل والاستنتاج فضلا عن منهج الشك والاعتماد على اساليب القياس الكمي. وتبنيه المنهج المقارن وعدم اعتماد التقليد والنقل والاتباع.

٢) أن دراسته للمجتمع الهندي كانت دراسة نظرية وتطبيقية ، إذ قارن بين المجتمعات وما تحمله هذه المجتمعات من تعاليم وطقوس . واكتشف أن هناك تشابه واختلاف بين هذه المجتمعات.

٣) ربط بين علم اجتماع اللغة والأدب وأكد أن عادات المجتمع وقيمه وآدابه ولغته تعتمد وتتاثر ببيئته الطبيعية من مناخ ونبات وموارد اقتصادية .

٤) اعتقد بوجود صلة بين الدين والفلسفة والسياسة . وان مصدر الشرائع والقوانين هو الدين .

٥) قارن بين الابنية الاجتماعية للمجتمعات ولاحظ أن اسباب الفروقات بين بناء وبناء انما يرجع إلى طبيعة المهنة وكثافة السكان والتوزيع الجغرافي للسكان .

٦) أن العلاقات الاجتماعية كما يراها البيروني بين الافراد والجماعات إنما هي علاقات ايجابية مبنية على التقارب والمحبة وهناك علاقات سلبية مبنية على الاختلاف والتناحر .

٧) اعتقد بأن المهنة هي الاساس في تقسيم المجتمع إلى طبقات ، فهناك الطبقة الدينية وهناك الطبقة المحاربة وهناك الطبقة الزراعية ثم الطبقة التجارية .

٢-التوصيات

١) ضرورة الاهتمام بتاريخ العلوم عند العرب المسلمين والاستفادة من آرائهم وطروحاتهم العلمية .

٢) اغناء المكتبة العربية بدراسات علمية حديثة عند البيروني في مجال علم الاجتماع كونه من الشخصيات العلمية الرائدة في الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجيا .

٣) تخصيص مراكز علمية متخصصة تعني بالعلماء العرب المسلمين ومن بينهم البيروني كما يحدث في بلاد الغرب . أسوة بمركز احياء التراث العربي وبيت الحكمة في جامعة بغداد .

٤) تعريف الطلبة في مؤسسات التعليم الأولى والعالي بالعلماء العرب من خلال اضافة اراء هؤلاء العلماء الى المناهج الدراسية حسب التخصص . كي يدركوا أن لهم ماضي حضاري مشرق قد يحفزهم إلى مزيد من التقدم والعطاء.

المصادر العلمية

1-Smith , W.I. History of Mathematics, London, the Evans press, 1949 , p.11.

2- Sachet, M.J. AL-Verona's Brilliance , Berlin 1931 Kip. 18.[i]

(٣) -البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق الدكتور ادوارد سخاو ، ليبزك ، ١٩٢٣ ، ص٥٢.

(٤) -الفوال ، صلاح مصطفى (الدكتور). المقدمة لعلم الاجتماع العربي الإسلامي ،دار الفكر العربي ، القاهرة ،١٩٨٢ ، ص١٦٠.

5- Dubrov , F. Great Thinkers of Our Land, Moscow, 1964, p . 32.

(٦) -الفوال ، صلاح مصطفى (الدكتور). المقدمة لعلم الاجتماع العربي الإسلامي ، ص١٦١.

(٧) - الحسن ، إحسان محمد (الدكتور). التراث الاجتماعي للبيروني ، دراسة منشورة في جريدة القادسية بتاريخ ٢٠٠٠/١/٢٣ .

8- Cupids , Monroe , Scientific and Creative Works of AL-Bearoni In India ,London ,West point publishing House , 1976 , p. 28.

9- Ibid, p.29.

(١٠) -ابو الريحان البيروني ، ويكبيديا ، الموسوعة الحرة ، ص١

(١١)- موقع ارض الحضارات ، البيروني ، ص١ .
http://landcivi.com/New-page-246.htm

12-Smith, W . F . History of Mathematics, London , the Evans press , 1949 , P.11

(١٣)- البغدادي ، اسماعيل باشا ، هدية العارفين ، م٢ ، وكالة المعارف ، استنبول ، ١٩٥٥ ، ص٦٥ .

(١٤)- عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق نزار رضا ، ج٢ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص٢٠ .

(١٥) -أمين، أحمد، ظهر الإسلام، ط٣ ، ج١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص٢٨٧ .

(١٦). -مينورسكي ، م.ف ، الجغرافيون والرحالة المسلمون ، نشرة يصدرها قسم الجغرافية ، الكويت رقم ٧٣ ، يناير ، ١٩٨٥ ، ص١٨ .

(١٧) - بدر ، جمال مرسي ، المجلد التذكاري للبيروني ، ص٢١٨ .

(١٨)- الناهي ، صلاح الدين عبد اللطيف ، الخوالد من آراء البيروني ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٥ ، ص١٢ .

(١٩). عاكف ، عدنان ، البيروني والمنهج النقدي ، الحوار المتمدن ، العدد ٢٥٣٩ في ٢٠٠٩/٢/٢٧ ، ص١

(٢٠). -ويكيبيديا ، الموسوعة الحرة ، أبو الريحان البيروني ، ص٢ .

(٢١) -موقع ارض الحضارات ، البيروني ، ص٢ .

(٢٢). - من ويكيبيديا ، الموسوعة الحرة ، أبو الريحان البيروني ، ص١ .

(٢٣). موقع جمعية هواة الفلك السورية، ص٢ . .ww.saaa.sy.org

(٢٤)- موقع أرض الحضارات ، البيروني ، مصدر سابق ، ص٢ .

(٢٥) - السعدي ، عباس فاضل (د) ابو الريحان البيروني ودوره في الجغرافيا والفلك ، مركز احياء التراث / جامعة بغداد ، العدد ٧ ، آيار ، ٢٠١٢ . ص٢١٦ .

(٢٦)- موقع مركز الشرق الأوسط ، دراسات عن البيروني ، ص٦ .

(٢٧)- نك ، مارتن ، أنثروبولوجيا ، من ويكبيديا ، الموسوعة الحرة ، موقع الشدق يناير ، فبراير ، ٢٠٠٤ ، العدد ٥٦ .

(٢٨)- العاني ، خالد ، البيروني ، جمعية هواة الفلك السورية ، ص٢ . .ww.saaa-sy.org

(٢٩). -البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذوله ، دار الطليعة ، ١٩٨٣ ، ص١٣ .

(٣٠) - نفس المصدر السابق ، ص١٣ .

(٣١)- نفس المصدر السابق ، ص٢٩-٣٥ .

(٣٢)- عاكف، عدنان ، البيروني والمنهج النقدي ، مصدر السابق ، ص٣ .

(٣٣) - نفس المصدر السابق ، ص٣ .

(٣٤)- نفس المصدر سابق ، ص١ .

(٣٥)- نفس المصدر السابق ، ص٢ .

(٣٦)- نفس المصدر السابق ، ص٢ .

(٣٧)- نفس المصدر سابق ص٦ .

(٣٨) -الفوال ، صلاح مصطفى (الدكتور). المقدمة لعلم الاجتماع العربي الاسلامي ، ص١٦٢.

(٣٩) - البيروني، الاثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق الدكتور ادوارد سخاو ، ص٥٩.

(٤٠) - المصدر السابق ، ص ٦٣.

(٤١) - المصدر السابق ، ص ٧٣.

(٤٢) - المصدر السابق ، ص ٧٤.

(٤٣)- القس بوابلو . عن تراث البيروني ، معهد الدومنيكان ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٧.

(٤٤) - المصدر السابق ، ص ١١.

45- Hills, C.M.AL-Bearonis Thought and Works, London, new Crescent press, 1959, p.8.

46- lbid . p . 12.

47-.bid . p . 19.

48- lbid . 26.

49Watts, M.F. Islamic Thought in Medieval Time , London , All ports press , 1962 , .10.

(٥٠)- نك ، مارتن ، أنثروبولوجيا ، من ويكبيديا ، الموسوعة الحرة ، مصدر سابق .

51- Watts , M.F. Islamic Thought in Medieval Time ,- London , All ports press , 1962 ,14.

(٥٢) - التوانسي ، ابو الفتح محمد . ابو الريحان البيروني ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، لجنة التعريف بالإسلام ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٤٥.

(٥٣) - المصدر السابق ، ص ٤٥-٤٦.

(٥٤)- البيروني ، تحقيق ماللهند من مقولة ،مصدر السابق ، ص٢٧-٣٤ .

(٥٥). - البيروني ، الآثار الباقية في القرون الخالية ،مصدر سابق ، ص٥ .

(٥٦). - التوانسي ، ابو الفتح محمد . ابو الريحان محمود البيروني ،مصدر سابق ، ص ٤٦.

(٥٧) - المصدر السابق ، ص ٤٨.

(٥٨). - المصدر السابق ، ص ٥٠.

(٥٩) -المصدر السابق ، ص ٥١.

60- Headley, J.B. Arabic Literary and Social Heritage, New York, Ford press, .- 1971,p.61.

61- lbid . p. 18.

62- lbid . p. 20

63- Cupids , Monroe Scientific and Creative Work of AL-Bearoni , p.82.

(٦٤)- البيروني ، الاثار الباقية في القرون الخالية ،مصدر السابق ، ص٤ . -

65- Cupids , Monroe Scientific and Creative Work of AL-Bearoni . p. 18, p.84. -

(٦٦) - البيروني كتاب الهند الكبير الخاص بعلم الاجتماع والانثروبولوجيا ، تحقيق علي رضا ، بومباي ، الهند ، ١٩٤٩ ، ص ٦.

(٦٧)- نفس المصدر السابق ، ص٥٤ .

(٦٨) - فهيم ، حسين (د) ، قصة الأنثروبولوجيا ، عالم المعرفة ،الكويت ، ١٩٨٦ ، ص٥٣ .

(٦٩) -البيروني ، الآثار الباقية في القرون الخالية ،مصدر سابق، ص٥ .

(٧٠) - البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة ، مصدر سابق ، ص٣٩ .

(٧١). - نفس المصدر السابق ، ص٤٣ .

AL-Bearoni social scientist and anthropologist

Submitted by

dr. Abdulrazzaq Jadou Mohammed
Diyala University / College of Basic Education

abu.reem15@yahoo.com

Abstract

1- Bearoni based in social studies and anthropology on solid scientific research methods consisted of note and participant observation through his travels and field his travels. And use of reason in the elicitation, analysis and conclusion as well as the approach of doubt and rely on quantitative measurement methods. The adopted approach and comparative lack of tradition, transport and followers adoption.

2- The study of the Indian community were theoretical and practical study, as compare communities and endured these communities from the teachings and rituals. and discovered that there are similarities and differences between these communities.

3- He Link between linguistics and literature meeting and stressed that the values and etiquette and language dependent and influenced by its environment from natural climate and plant economic and community resources habits.

4- He think there is a link between religion and philosophy, and politics. And that the source of the laws and regulations is a religion.

5- Compare the buildings between social communities and noted that the reasons for the differences between the building and the building is due to the nature of the profession and the density of population and geographical distribution of the population.

6- That the social relations as seen by the Peronist between individuals and groups but are positive relationships based on closeness and love, and there is a negative relationship based on differences and rivalry.

7- He think that the profession is the basis of society is divided into classes, there is a religious class and there warrior class and the class then there are agricultural business class.